نظرة في الجزء الثاني (*)

(من كتاب تاريخ آداب اللغة العربية)

٢

(الغلط في النقل)

قد اخطأ المؤلف في نقل عبارات المؤلفين اما بتصرفه فيها تصرفا افسد معناها واما بتحريف الكلم واما بنقلها عن نسخة محرفة من غير تمحيص لها . فمن ذلك

(١) قوله في ترجمة سلم الخاسر « هو سلم (ويقال سالم) بن عمرو احد موالي ابي بكر الصديق »

فسالم الخاسر هو (سلم) بفتح السين وسكون اللام . فمن اين جاء للمؤلف ان يقال في اسمه سالم ايضا وليس سلم مجهولا حتى يشتبه في اسمه

منشأ هذا التحريف الذي وقع فيه المؤلف ان نسخة تاريخ ابن خلكان المطبوعة كتب فيها سلم بالف توهما من الناسخ الاصلي أن الالف محذوفة كما تحذف في (القسم والحرث) فاثبتها وطبعت النسخة على هذه الصورة خطأ وفي نسخة ابن خلكان هذه ذكر اسم (سلم) منظوما في الشعر في قول ابي العتاهية له

تعالى الله ياسلم بن عمرو اذل الحرص اعناق الرجال

ونحن لا نشك ان المؤلف قرأ ترجمة (سلم) في الاغاني وفيها وقع اسمه منظوما في غير موضع فمن ذلك قول ابي العتاهية فيه

انما الفضل لسلم وحده ليس فيه لسوى سلم درك

وله فيه وقد حبس ابراهيم الموصلي

سلم ياسلم ليس دونك سر حبس الموصلي فالعيش مر

وقول ابي محمد اليزيدي فيه

(*) بقلم الاستاذ الشيخ أحمد عمر الاسكندري

عق سلم امه صغرا وابا سلم على حسكبره

ومن هجاء ابي الشمقمق فيه

(يا أم سلم هداك الله زوريا)

وقول مروان ابن ابي حفصة فيه

اسلم بن عمرو قد تعاطيت غاية تقصر عنها بعد طول عنائكا

وقول أشجع السلمي يرثيه

يا سلم ان أصبحت في حفرة موسدا تربا وأحجارا

فرب بيت حسن قلته خلفته في الناس سيارا

فهو عند هؤلاء الشعراء المعاصرين له اسمه (سلم) فحسب . ويجوز عند مؤلفنا ناسخ ابن خلكان أن يسمى (سالما) أيضا فليختر القارئ لنفسه مايحلو

(٢) ومن خطئه في النقل قسمة اسم رجل واحد على مسميين

فذكر في ترجمة الصولي (ص ١٧٥) أن له كتابا اسمه الاوراق وهو في دار الكتب الخديوية، وذكر ممن ترجم له هذا الكتاب احمد بن يوسف بن صبيح فقال « واحمد بن يوسف وزير المأمون وآله . وابن صبيح كاتب دولة بني العباس وتوقيعات احمد المذكور وكلامه فضلا عن اشعاره »

والحقيقة ان الثاني هو عين الاول ومن يراجع الكتاب يعرف ذلك .

وهو احمد بن يوسف بن القاسم بن صبيح . ويتبين هذا ايضاً من خلال كلام مؤلفنا اذ ذكر احمد ثم ابن صبيح ثم قفى بذكر توقيعات احمد ورسائله وشعره . فلو كان ابن صبيح غير احمد فما الداعي لفصل توقيعات احمد عن ترجمته

ولو فرضنا ان المؤلف يريد بابن صبيح جده القاسم فذلك لم يكن كاتب دولة بني العباس بل كان يكتب لبني امية وللمنصور في بدء خلافته ولم تطل ايامه ، وليس هناك في الكتابة واما ذكره الصولي مع من ذكره من آل احمد بن يوسف

(٣) ومن خطئه في النقل بتصرفه في عبارة المؤلفين قوله في ترجمة ابن الرومي صفحة (١٥٨)

« اشتهر بالتوليد في الشعر لانه اتى بكثير من المعاني لم يسبق اليها : ومن مميزاته انه لايترك المعنى حتى يستوفيه ويمثله للقارئ تمثيلا »

ومن عبارة المؤلفين في ذلك ماقاله صاحب معاهد التنصيص

« هو ابو الحسن ..... صاحب النظم العجيب والتوليد الغريب يغوص على

المعاني النادرة فيستخرجها من مكانها ويبرزها في احسن قالب وكان اذا اخذ المعنى لا يزال يستقصي فيه حتى لا يدع فيه فضلة ولا بقية »

وقال ابن خلكان

« صاحب النظم العجيب والتوليد الغريب يغوص على المعاني النادرة فيستخرجها من مكانها ويبرزها في أحسن صورة ولا يترك المعنى حتى يستوفيه الى آخره ولا يبقي فيه بقية »

فترى ان عبارة ابن خلكان اجود في تصوير الشاعر وعنه نقل صاحب معاهد التنصيص مع تغيير قليل

فرأى مؤلفنا ان ينقل عنهما بتغيير آخر ولكن تغييره شذ عن مرادهما فهما يقصدان بقولهما « صاحب التوليد الغريب » انه اذا استنبط معنى من قرآن او حديث او حكمة او مثل او من كلام شاعر آخر أو اخترعه اختراعا لا يزال يولد منه معاني مثنى كلة بالزيادة عليه او النقص منه او بالقياس عليه فيستعمله في مدح ويقلبه في هجو ويزينه في وصف حتى لا يدع لغيره وجها ايا كان يستعمله فيه بعد . وقد فسر المؤلفان غرضهما في عبارتهما بقولهما (يغوص على المعاني الخ)

ففهم مؤلفنا من (التوليد) انه (يأتي بمعان لم يسبق اليها) مع ان ابن الرومي كثيرا ما يغير على قول غيره . وفهم من قولهما (وكان اذا اخذ المعنى الخ) انه يوضح المعنى ويمثله تمثيلا . وما كان عليه لو نقل عبارة المؤلفين كما فعل في أكثر مواضع الكتاب

(٤) ومن تقصير المؤلف في توضيح ماينقله ما نقله عن السيوطي ناقلا عن كتاب العين ومختصر الزبيدي احصاء المستعمل من الالفاظ العربية والمهمل منها فاستخرج المؤلف من كلام الزبيدي جدولا استنتج منه ان عدد المستعمل من ألفاظ اللغة العربية ٥٦٢٠ لفظا، مع ان كتاب القاموس وحده (وهو ليس الا قطرة من بحر اللغة العربية) يشتمل على ستين الف مادة متوسط مافي كل منها من المزيد والمشترك عشرون كلة على الاقل أي نحو مائتي الف والف الف كلة فكيف ولسان العرب به ثمانون الف مادة متوسط مافي كل منها ثلاثون كلة على الاقل

والمؤلف نقل عبارة الزبيدي عن المزهر للسيوطي وهي فيه مختلة أيضاً اسقط منها النساخ كلة (الف) المكررة في عدد المهمل والمستعمل فصار فيها الف الالف (أي المليون) الفا فقط، ويعرف هذا بمراجعة مقدمة شارح القاموس فانه نقل عبارة الزبيدي أيضاً وفيها مكان الالف في بيان المهمل والمستعمل (الف الف) وان وجه

بها بعض تحريف أيضاً فكان جديراً بالمؤلف أن يزن العبارة بميزان عقله ويعدلها اذا شاء كما عدل الارقام التي ذكرها المزهر لتصح له عملية الجمع

(٥) ومن تحريف المؤلف بنقل عبارة المؤلفين ناقصة ما نقله في ترجمة المتنبي في قوله « حتى صار يقف بين يدي كافور وفي رجليه خفان وفي وسطه سيف ومنطقة ويركب بحاجبين من مماليكه وهما بالسيوف والمناطق، فلما رأى كافور منه سموّه بنفسه وتعاليه بشعره خافه وقال « ياقوم من ادعى النبوة بعد محمد (صلعم) الا يدعي الملك مع كافور فحسبكم » فاغضبه فخرج ابو الطيب من مصر »

والمتأمل في هذه العبارة يجدان قول كافور « ياقوم الخ » مقتضب مما قبله بل هو تتمة لسكلام محذوف ، وهو الواقع فان كافورا كان وعده بولاية بعض اعماله وطمع المتنبي في ذلك واستبجزه وعده في شعره مرارا وهو يماطله ، فعاتبه بعض كبار الدولة في مطله عن ابلاغه امنيته على كثرة مدحه له وهجرته اليه مغاضبا لسيف الدولة فقال كافور « ياقوم الخ »

(عدم تحري الحقيقة والصواب)

اعتاد المؤلف أن ينقل الى كتبه ما يعتقده بذاته أو ما يكون ذائعاً على ألسنة عامة القراء والورّاقين ، أو يقرؤه في الكتب التي تلقي الاخبار على عواهنها ، من غير تمحيص لحقيقتها ، حرصاً على افادة القراء وأتحافهم بالغرائب ، وهو اجتهاد يشكر عليه لولا ما يشوّه بهذه الاخبار محاسن كتبه من حيث لا يقصد . وربما يلتمس له في ذلك عذر وهو تسرعه في تأليف الكتب تعجيلا لفائدتها ، وان التحري والبحث والتحقيق والتدقيق كلها تستدعي أزماناً طويلة ومراجعة لكثير من الكتب ، ومساءلة لجمهور الادباء ، وهو ما يضيق دونه وقته الثمين ، وعامة القراء يرضيهم ما دون ذلك والمستفيد يتوخى أربح الطريقين (ولكل وجهة هو موليها)

ولكن الرأي الذي نراه انه ينبغي لكل من تعرض لتدوين التاريخ في السياسة أو الادب ألا يكتفي برواية كتاب واحد أو كتابين وبما يذيع على ألسنة الناس ، بل يجب عليه تحقيق الخبر وتمحيصه والاخذ بالرواية القريبة من العقل ، واللائقة بمنزلة من روي عنهم

ويوجد في هذا الكتاب كثير من الاخبار التي اغتر المؤلف بنقلها من الكتب ولم يمحصها ، فمن بعض ذلك :

(١) نقله عبارة ابن خلكان التي نقلها مثل المؤلف كثير من الناقلين من أن الأمين جمع بين سيبويه والكسائي في مجلسة للمناظرة وان الكسائي زعم أن العرب تقول « كنت أظن الزنبور اشد لسعاً من النحلة فاذا هو اياها » وان سيبويه قال ان المثل « فاذا هو هي » وان الامين تعصب لاستاذه الكسائي وأوعز سرا الى أعرابي حكموه في المسألة أن يصوب الكسائي ويخطئ سيبويه .

مع ان المسألة مشهورة في كتب الأدب والتاريخ والنحو من أن المناظرة جرت في مجلس يحيى بن خالد البرمكي وان الكسائي كان يجيز الوجهين (أي فاذا هو هي - و - فاذا هو اياها) وان اعرابا عدة معروفين بعينهم واسمائهم شهدوا بجواز الامرين وان الغلبة كانت على سيبويه في هذا المقام وليس في العلم كبير . وهذا ما يليق بمقام الكسائي والامين وثقات رواة الأعراب . والقصة مبسوطة بالتفصيل في معجم الادباء لياقوت ص ١٩١ ج ٥ في ترجمة الكسائي وفي ص ٨١ ج ٦ ولم يكمل طبعه ولكن ما طبع اطلعت عليه وفيه ترجمة سيبويه وفي ص ٣٦٦ من (بغية الوعاة في طبقات النحاة) وفي مبحث (اذا) من الجزء الاول من مغني اللبيب لابن هشام وفي غيرها من الكتب غير المطبوعة وفي اكثرها إعراب الوجه الثاني من الوجهين اللذين يجوزهما الكسائي ، وان البصريين أنفسهم لا ينكرون صحة شهادة الاعراب الثقات وانما يطعنون فيهم بانهم من أعراب الحطمة أي انهم ليسوا فصحاء . ولولا طول هذه القصة لأوردتها من كثير من الكتب التي تخالف ابن خلكان في النقل وربما اطلع عليها المؤلف ولكنه آثر روايته إما لغرابتها أو لغرض آخر

(٢) ومن الامور التي لم يحر فيها المؤلف الحقيقة والصواب قوله في ص ١٤٦ في تعداد كتب الواقدي

« ٢ كتاب فتوح الشام : هو اشبه بالقصص منه بالتاريخ لما حواه من التفاصيل والمبالغات لكنه مؤسس على الحقيقة . وفيه حقائق لا توجد في سواه من كتب الفتوح ، وقد طبع مرارا - الى ان قال - وطبع ايضا في مصر سنة ١٨٨٢ » وغيرها .

ثم بعد ان ذكر عدة كتب له قال :

« ٧ عدة كتب في الفتوح تنسب اليه كفتح منف والجزيرة والبهنسا طبعت بمصر وغيرها . وكان له كتاب يسمى فتوح الامصار لم نقف عليه ولكن المؤرخين نقلوا عنه . واكثر كتبه محشوة بالمبالغات لا يعول عليها وفي مجلة المشرق اليسوعية مقالة انتقادية في الواقدي ومؤلفاته (صفحة ٩٣٦ سنة ١٠) جزيلة الفائدة »

اقول اني لم اطلع على مجلة المشرق ولا على انتقادها ولكن الامر لا يجهله من له ادنى إلمام بتمييز كتابات العصور المختلفة او بالتاريخ ان كتب المغازي التي تطبع في مصر من مثل فتوح الشام ومصر والهند وفتح خيبر وفتح مكة ورأس الغول ونحوها هي من الكتب الموضوعة الخيالية المشتملة على بعض حقائق تاريخية والاقرب انها وضعت في قصة عنترة وذات الهمة وغيرها زمن الحروب الصليبية لتغرس في الناس فضيلة الشجاعة والاقتداء بالسلف الصالح لا انها هي نفس كتب الواقدي الحقيقية وان الذين سموها بهذه الاسماء هم جماعة الوراقين والناسخين لترويج سلعهم عند القراء كما نسب مؤلف قصة عنترة رواياتها الى الاصمعي وزعم أنه عمر وادرك الجاهلية وقابل شيبوبا اخا عنترة . واني لأخجل ان ارى مثل مؤلفنا قد انخدع بهذا الباطل وطوح به الامر ان قال في كتب الواقدي ابي التاريخ انها محشوة بالمبالغات لا يعول عليها. وليت شعري على من نعول في تاريخ الفتوح اذا لم نعول عليه . وهذا ابن سعد كاتب الواقدي وتلميذه نقل عنه اكثر اخبار الفتوح في كتابه الكبير (طبقات ابن سعد) البالغ بضعة عشر مجلداً وهو أصح كتاب في طبقات الصحابة . على ان المؤلف لو راجع عبارة بعض هذه الكتب المنحولة للواقدي وبعض الكتب الاخرى الصحيحة النسبة اليه كفتح افريقية وفتح العجم لميز بين الصحيح والموضوع . ولكن قاتل الله العجلة وخاصة العجلة في التأليف .

(٣) ومن الامور التي لم يخبر فيها المؤلف الحقيقة نقله ما يقوله بعض خصوم الجاحظ من الصفاتية واهل السنة من انه كان يقول: ان القرآن المنزل من قبيل الاجساد وانه يمكن ان يصير مرة رجلا ومرة حيوانا الخ الخ والجاحظ اعقل من ان تنسب اليه هذه المقالة وهو هو من علمت، ومذهب المعتزلة مبسوط معروف في كتب الكلام ولم يسمع عنهم هذا القول، والجاحظ لسانهم وحجتهم والمؤيد لمذهبهم وانما اخذ اعداؤه هذا من قوله في القرآن: انه مخلوق، اي كما تخلق بقية الموجودات من انسان وحيوان وترجمة الحافظ ذكرت في كثير من الكتب واخصها ترجمة ياقوت في معجم الادباء وهي نحو ٢٥ صفحة ولا توجد فيها هذه الفرية ولا اعرف المؤلف نقلها عن غير الشهرستاني او عمن نقل عنه.

(التناقض)

ناقض المؤلف نفسه في كثير من مواضع كتابه فمن ذلك : (١) قوله في صفحة

(١٥٩) « ويمتاز ابن الرومي بتفضيله المعنى على اللفظ كالمتنبي فيطلب صحة المعنى ولا يبالي حيث وقع من هجنة اللفظ وقبحه وخشونته (١) ومع ذلك فانك تجد في نظمه سهولة ومتانة »

قرأنا هذه العبارة فتعجبنا من تناقضها ولحنا في أثنائها رقما يشير به الى الذيل من أنه أخذ هذه العبارة من العمدة لابن رشيق ج ١ ص ٨٢ فراجعنا العمدة فاذا فيها « ومنهم من يؤثر المعنى على اللفظ فيطلب صحته ولا يبالي الخ » ولم يذكر العبارة التي زادها مؤلفنا من عنده فاوقع نفسه في التناقض كما أوقع قارئ كتابه في حيرة.

(٢) ومن تناقض كلام المؤلف قوله في صفحة ١٢٣ في تعرضه لكتاب العين « ولم ينبغ نحوي ولا لغوي ولا أديب في عصر الخليل وما يليه الا استفاد من كتابه ولكن الثقات الباحثين مختلفون في حقيقة نسبته اليه وفي صحة ما جاء فيه من الروايات والاقوال . من ذلك ما رواه ابن النديم في الفهرست عن ابن دريد قال (وقع في البصرة كتاب العين سنة ثمان وأربعين (ومائتين) قدم به وراق من خراسان وكان في ثمانية وأربعين جزءا فباعه بخمسين دينارا ، وكان قد سمع بهذا الكتاب انه في خزائن الطاهرية حتى قدم به هذا الوراق »

فانت ترى من هذه العبارة ان الكتاب اشتهر في عصر الخليل حيث لم ينبغ نحوي ولا لغوي ولا أديب في عصره الا استفاد منه على زعم المؤلف ، ولكن لا تكاد تفرغ من قراءة هذه الجملة حتى تقع فريسة ان الثقات الباحثين مختلفون في نسبته للخليل وفي صحة ما فيه. فليت شعري من هم هؤلاء الثقات الباحثون؟ أهم جميع النابغين من النحويين واللغويين والادباء الذين استفادوا جميعهم منه؟ أم هم غير هؤلاء النابغين؟ وبعد فمتى استفاد هؤلاء النابغون؟ والكتاب بشهادة ابن النديم بل بشهادة كل من كتب في تاريخ كتاب العين لم يظهر الا بعد موت الخليل بنحو سبعين سنة وذلك ما جعل العلماء يشكون فيه وانه لو كان للخليل لذاع أمره وعرفه تلاميذه ونقلوا عنه مع أن تلاميذ الخليل مثل الاصمعي وابي عبيدة وابي زيد وتلاميذهم ـ كل أولئك لا يعرفون عن كتاب العين شيئا ، ولكن مؤلفنا وحده يعلم انه لم ينبغ نحوي ولا لغوي ولا أديب في عصر الخليل وبعده الا استفاد منه والله في خلقه شؤون .

(٣) ومن تناقض المؤلف قوله في صفحة ٢٠١ « نشأ علم الجغرافية في هذا العصر (اي العصر الثاني العباسي) بعد نقل علوم القدماء الى العربية وفي جملتها كتاب بطليموس وعليه معولهم في تقويم البلدان. على أن المسلمين بدءوا بوضع

الجغرافية قبل اطلاعهم على ذلك الكتاب لاسباب غير التي دعت اليونان الى وضعها الخ الخ » . فان تمحلنا عذرا للمؤلف في هذا التناقض وقلنا انه استعمل شبه الاستخدام البديعي في كلامه فيكون قد ذكر الجغرافية أولا بمعنى الجغرافية الرياضية واعادها ، ثانيا الجغرافية التخطيطية التي كانت تسمى علم المسالك والممالك فلا يصح رفع التناقض من كلام المؤلف أيضاً لان العرب اشتغلوا بالجغرافيـة اليونانية قبل العصر الثاني ، والمأمون وعلماؤه من صحح اغلاط بطليموس وغيره في محيط الارض وقطرها ومقياس الدرجة الارضية .

(٤) ومن تناقض المؤلف وتحيره قوله في ابي العتاهية « وقد نظم في كل أبواب الشعر وامتازمنها بالزهد ويؤخذ من سيرة حياته أنه كان مترددا متقلبا ويغلب ذلك في طباع الشعراء لانهم أهل خيال وأوهام وخصوصا الذين يستجدون بشعرهم فانهم يتقلبون مع الاهواء ويسعون وراء النفع حيثما كان . على ان تمنع أبي العتاهية عن قول الغزل بعد أن أمره به الرشيد يخالف هـذه القاعدة ولـكن لعل له سببا حمله على ذلك » ! !

ما قولك أيها القارئ في هـذه العلل التي لو صدقت (لا قدر الله) على كل شاعر يتكسب بالشعر كأبي العتاهية لتبرمت الدنيا بكثرة المحرورين والموسوسين المتخبطين . على أن الله أرحم من أن يصدق زعم المؤلف في الشعراء من عباده فلم تر بعد أبي العتاهية من يشبهه في سوداويته والحمد لله .

(الاختصار فيما ينبغي الاطناب فيه)

« والاطناب فيما ينبغي الاختصار أو فيما هو اجنبي من موضوع الكتاب »

من اعجب امور المؤلف انه يعلم ويعلم ان الناس تعلم انه يؤلف كتابه في آداب اللغة العربية لا آداب اللغة اليونانية القديمة ولا الفارسية ولا الهندية ولا السريانية ولا اللغات الاوربية الحاضرة ، ثم تراه اذا خاض في ذكر مبحث من مباحث الآداب العربية او عدد نبغاءها او ذكر ترجمة نابغ شاعر أو كاتب او مصنف اقتصر على ذكر نتف قليلة من المبحث او اقتصر على العدد القليـل من مشهوري النبغاء واختصر تراجمهم مكتفيا بذكر ما لا يلزم الناقد الاديب وبذكر الـكتب التي يراجعها من شاء التوسع وقد لا تزيد عن كتابين معروفين لا كثر الناس لا حاجة للدلالة عليهما على

حين انه يطول في كثير من المواضع حتى ليكرر كثيرا من المباحث في غير مكانه لمجرد ولعه واعجابه بل يخرجه ولعه بالشيء ان يدخل في كتابه مباحث مطولة جدا ليست من موضوع آداب اللغة العربية وتراجم اناس ليسوا من العرب ، ولا خالطوا العرب ـ فمن النوع الاول :

(١) اختصاره في تراجم مشهوري الشعراء واقتصاره منها على ذكر نتف جافة قلما يتعرض فيها لنقد او موازنة او تقرير حكم معتذرا عن ذلك بانه ليس من الادباء المتفرغين للدرس والنقد . قال في صفحة ٥٨ عند ذكر سبعة من شعراء العصر الاول :

« واليك تراجمهم على هذا الترتيب بما يقتضيه المقام من الايجاز والا فان كلا منهم يحتاج في بسط ترجمته الى مجلد قائم بنفسه فنترك ذلك الى من تفرغ للدرس والنقد من الادباء » .

ونحن نسلم معه انه ليس من المتفرغين للدرس والنقد من الادباء ولكن لا نسلم ان من لم يتفرغ للدرس والنقد من الادباء يوثق بقبوله أو يعتد برأيه في هذا الباب أو يظن انه باختصاره آثر الاهم على المهم . وأي مقام يفرض عليه الايجاز الخالي من الحكم الادبي والكتاب ليس مذكرة مدرسية تنطبق على برنامج مدرس مختصر وانما يقصد المؤلف به أن يكون مرجعا لجمهور المتأدبين من القراء الشداة لا التلاميذ الاحداث، بدليل ان (حضرته) وعد في كتابه هذا ان يختصر منه ملخصاً لتلاميذ المدارس. على ان الذي يستطيع ان يؤلف مجلدا في ترجمة شاعر لا يعجزه أن يلخص هذا المجلد في صفحة أو اثنتين بحيث يشير في كلامه الى نتيجة البحث والنقد .

(٢) ومن اختصاره أو اقتصاره أو تقصيره انه لم يترجم لاحد من كتاب الرسائل في العصر الاول ولا الثاني (اي في مدة مائتي سنة) وهما عصرا البلاغة والجزالة الا لاثنين ، أحدهما عمرو بن مسعدة والآخر القائد طاهر بن الحسين قاتل بغداد وقاتل الامين ووالي خراسان، وقد علمت انه ليس من كتاب الرسائل ولا عمل في ديوان.

مع ان كتاب الرسائل في هذين العصرين لا يقل النابغ منهم عن عشرين تولى اكثرهم الوزارة او ديوان الرسائل والتوقيع والخاتم كسمارة بن حمزة وابي عبيدالله ويعقوب بن داود وزيري المهدي وخالد بن برمك وابنيه الفضل وجعفر واحمد بن

يوسف وزير المأمون وابن الزيات وابراهيم الصولي والحسن بن وهب وسليمان بن وهب وسعيد بن حميد وابن مكرم واحمد بن اسرائيل والحسن بن مخلد وبني المدبر وآل ثوابة وآل الفرات وآل الجراح وابن مقلة وغيرهم ممن تزينت كتب الادب ببارع كتبهم ، وطلعت اهلة البلاغة من خلال فصولهم ، وليسوا بالمجهولين فيجعلهم المؤلف ، ولا المدفوعين عن تقدم فيلوي عنهم عنانه .

(٣) ومن تقصير المؤلف اهماله ذكر الجرمي من نحاة العصر الثاني مع ترجمته لابن ولاد وابي جعفر النحاس وغيرهما ومكان الجرمي في النحو لا يجهل .

(٤) ومن تقصير المؤلف اهماله ذكر الاوزان والقوافي التي طرأت على الشعر في جميع العصور التي ذكرها كالموالياً والدوبيت وابحر المولدين والشعر المزدوج والمسمط والتعريف بقائليها واكتفى بنبذة يسيرة في الموشحات في العصر الثالث

ومن النوع الثاني اي التطويل في غير موضعه بل ادخال ما ليس من موضوع الفن فيه اوما ليس من موضوع هذا الجزء الثاني الخاص بالعصر العباسي : -

(١) تخصيصه اثنتي عشرة صفحة من كتابه لموضوع اجنبي من موضوع آداب اللغة العربية بالمرة وهو آداب اللغة اليونانية واطوارها وتراجم مستقلة بصور كبيرة لفلاسفة اليونان كسقراط وافلاطون وارسطو وابقراط واقليدس وارشميدس وجالينوس وآداب اللغة الفارسية واطوارها وآداب اللغة السريانية واطوارها وآداب اللغة الهندية . نقل هذه المباحث من دوائر المعارف ووضعها في كتابه تاريخ التمدن الاسلامي لاقل مناسبة ثم نقلها هنا بلا مناسبة وكان الاولى بالمؤلف ان يجعل محلها كتاب الدولة العباسية وهم فحول البلاغة وقادة الكلام

(٢) ومن ذلك اسهاب المؤلف في شرح الادب والانشاء عند الافرنج ص ٢٧٦ مع انه ليس من غرض كتابه

(٣) وذكره لبعض قصص الافرنج الخرافية ووضع صور خرافية لحروب الاسكندر المقدوني مع أمم لهم ست أيد وأمم لهم وجوه بهائم

(٤) ومن التطويل أو من الاخلال بالنظام وضع الكلام في مبحث تأثير القرآن الكريم في اللغة العربية في هذا الجزء وكان من حقه أن يدرج في الجزء الاول

(٥) ومن التطويل تكرار الكلام في موضعين أو ثلاثة لغير موجب مثل وصف التهتك والخلاعة ذكره في الشعراء ثم اعاده بعينه في الشعراء ص ٥٠

(٦) ومن التطويل في غير موضعه نقل القصة المطولة التي تحكي عن عبد الملك

من انه قال لجلسائه يوما « ايكم يأتيني بحروف المعجم في بدنه وله علي ماشاء » وان سويدا ذكر من كل حرف كلمة ثم ثلاث كلمات ، وان هذه القصة وما سيقت لاجله — وقد بلغت نحو صفحة — كان حقها أن توضع في حالة اللغة في بني أمية لا أن تذكر في علم اللغة في بني العباس

(٧) ومن ذلك ذكره حالة الغناء في الدولة الاموية ضمن مقالة الموسيقى والغناء في الدولة العباسية وكان من حقها أن توضع في الجزء الاول

(الاستدلال بحادثة جزئية على أمر كلي)

اعتاد المؤلف في كتبه أن يستنتج من حادثة جزئية أمراً كلياً وهذه الخصلة من أكثر ما ينعاه عليه النقاد وقد عمل بها في كتابه هذا غير مرة كقوله في صفحة ٧٨ في ترجمة في سلم الخاسر

« وكثيرا ما كان يأخذ أقواله (أي أقوال بشار) فيسلخها ويمسخها كما مسخ هذا البيت :

من راقب الناس لم يظفر بحاجته وفاز بالطيبات الفاتك اللهج

فجعله

من راقب الناس مات غما وفاز باللذة الجسور

فبلغ بيته بشارا فغضب وأقسم ألا يدخل عليه ولا يفيده ما دام حيا فاستشفع اليه بكل صديق حتى رضي الخ »

فكل من تتبع ترجمة سلم الخاسر في مظانها لا يجد من سرقته لشعر بشار غير هذا البيت وهو وحده سبب الغضب

وقوله في صفحة ١٦٧ في ترجمة الحافظ وذكر إصابته بالفالج ولزومه بيته بالبصرة « وكان قد اشتهر وذاع صيته في العالم الاسلامي فتقاطر الناس لمشاهدته والسماع منه فلا يمر أديب أو عالم بالبصرة الا طلب أن يرى الجاحظ ويكلمه »

فليتفضل علينا المؤلف ويذكر لنا أديبين أو ثلاثة من هؤلاء غير ذلك الوالي البرمكي المصروف عن ولايته بالسند الذي جعل ذهبه في أشكال الاهليلج ان جاز له أن يدعي انه كان أديبا عالما

ومن هذا القبيل شيء كثير في الكتاب

(تقليده مستعربي الفرنجة حتى في الخطإ)

للمصنف ولع بنقل ما يكتبه المستعربون عن العرب وآدابهم - ولو خالف الواقع - ومن ذلك نقله فصولا برمتها مشوبة بالخطأ من كتاب نيكلسن الانكليزي وبروكلمان الالماني مثل مقالة الشعر في العصر الاول وغيرها

(اضطراب التبويب والتقسيم)

ان بعض مقرظي هذا الكتاب وصفه بأن أهم ما يمتاز به عن كتب المتقدمين هو حسن تبويبه وتقسيمه ، ولكني لسوء حظي لم أوفق الى سر تبويبه وتقسيمه هذا الكتاب - اذ أجد مايصلح ان يذكر في تاريخ الآداب، ومايلزم أن يوضع في كتب آداب الفرنجة، وضع في أدب العرب ، وما ينبغي أن يجعل في عصر ظهور الاسلام جعل في عصر بني العباس، ومن يجب أن يترجم له في عصر معين أو في طائفة بعينها ترجم له في عصر غير عصره أو في طائفة غير طائفته الخ الخ بحيث تضطرب المباحث وتتداخل العصور ويلتبس الامر على القارئ فلا يدري خاصة كل عصر . فمن ذلك :

(١) ذكر القرآن الكريم والعلوم التي تفرعت منه وبيان تأثيره في آداب الجاهلية من الخطابة والشعر والانشاء واللغة وبيان تأثيره من الوجهة الاجتماعية والاخلاقية مع أن محل ذلك مبدأ ظهور الاسلام اذ هو وحده مبدأ هذه التغيرات

(٢) ابتداء المؤلف هذا الجزء بالكلام المسهب في العلوم الدخلية وتراجم رجال اليونان وتأخيره الشعر العربي والعلوم العربية والشرعية عن موضعها مع أنها هي المباحث العربية الاولى بالتقديم - لان الكتاب صنف في آدب اللغة العربية لا الدخيلة . ولو سلمنا ان للمؤلف سرا في تقديم الدخيلة ، فما هو السر في أنه أخرها عن الشعر العربي والعلوم العربية والشرعية في العصر الثاني والثالث ؟

(٣) اسهابه في صفحة ١١٩ و ١٢٠ في حالة العناية بأمر اللغة في زمن بني أمية ، وكان الاليق أن يذكرها في الجزء الاول الخاص بآداب الجاهلية وعصر الخلفاء الراشدين وبني أمية

(٤) اسهابه في الكلام على الاغاني في عصر بني أمية في هذا الجزء الخاص ببني العباس ومن حقه ان يذكر في الجزء الاول

(٥) ذكره ان احتدام الخلاف بين النحويين الكوفيين والبصريين حصل في العصر الثاني وما بعده من عصور الدولة العباسية . والحقيقة أن الخلاف أشد ما كان بين كوفي وبصري قد كان في العصر الاول . وأما الثاني والثالث وما بعدهما فقد هان فيها الخلاف ووجدت مذاهب ملفقة من المذهبين . فكان الاولى ذكر هذا البحث المسهب في العصر الاول

(٦) ومن ذلك تأخيره الكلام في نشأة علم الفرائض الى العصر الثالث مع أنه قديم دوّن منذ دون الفقه فكان الواجب ذكره في العصر الاول

(٧) ومن ذلك ذكره عدد كثير من الشعراء والعلماء المصنفين من أهل عصرين العصر الذي يليه أو الذي قبله ويعلم ذلك من وفياتهم فليتنبه لها القارئ . ولولا أني سئمت من كثرة التعداد لاتيت عليهم جميعا . وكثيرا مايذكر المؤلف علماء فن مع علماء فن آخر وشعراء نوع في شعراء آخر . وان شاء المؤلف ان نفصل له هذا الاجمال ونذكر من هم الذين عاملهم بهذه المعاملة فنحن على كتب من إجابته

(تهافت المؤلف)

للمؤلف تهافت وولع بالشيء لا يؤبه له أو بالامر يناسب مقاما خاصا فيقحمه في كل مقام كما فعل هذا في كتابه هذا وغيره في مواضع شتى فمن أمثلة ذلك : ولعه بمسألة النشوء والارتقاء يقيس بها كل أمر حتى خرج به القياس الى عكس مايراد بها فذكر في هذا الكتاب صفحة ٢٢٩ ان اضطراب الخلافة الاسلامية وانحلالها الى إمارات وممالك صغيرة متنافسة منشأ كسة من دواعي النشوء والارتقاء، في حين يعده المؤرخون من دواعي الانقراض والفناء ، كما هي النتيجة الحقيقية التي أعقبت هذا الانشعاب . فذلك حيث يقول « فلما اضطربت أحوال الخلافة في أيام المتوكل ثم نشأت الدول الجديدة في المملكة الاسلامية بالتفرع والتشعب على مقتضى ناموس الارتقاء تفرق العلماء الخ الخ »

ثم ناقض قوله هذا بقوله في العصر الثاني أي الذي كان بعد ان اضطربت الخلافة وحدث الارتقاء — على زعمه — « حدث في العصر العباسي الاول نهضة علمية عقبها في العصر الثاني فتور على أثر البحران السياسي الذي أخذ من نفوس رجال الدولة حتى اشتغلوا بأنفسهم عن تنشيط العلم . ثم ذكر أن بعد هذا الفتور حدثت نهضة لم يبين سببها وقال : والفاعل في هذه النهضة ناموس النشوء الطبيعي الخ » ومن مثل هذه المسألة كثير في الكتاب

(اللحن والاغلاط اللغوية)

لا تكاد تمر بالقارئ صفحة من الكتاب الا مشتملة على خطأ لفظي إما في النحو أو الصرف أو اللغة وكان يجدر بالمؤلف أن يعرض كتبه على ناقد بصير بصناعة الاعراب حافظ لمستعمل اللغة حتى لا يزل كتبه النفيسة بهذه الاغلاط الشائنة

وان كانت هذه الاغلاط تعد بالعشرات بل المئات لا نرى من الواجب علينا نحن عجالتنا هذه بشيء منها ولكننا لا نتأخر عن اجابة حضرة المؤلف اذا أراد تصحيح كتابه مرة أخرى بتعدادها له في فرصة من فراغنا ان سنحت

(النتيجة)

ان الكتاب على ما فيه من مواضع النقد لا يخلو من منافع في موضوعه وغير موضوعه ونشكر حضرة المؤلف على اهتمامه بخدمة العلم ونسأله مساعدتنا فيما كتبنا اقتداء به أو مساعدة له على هذه الخدمة لا غير وحسبنا الله ونعم الوكيل

﴿ عبر الحرب البلقانية وخطر المسألة الشرقية ﴾ (*)

— ١ —

مقدمة وتمهيد

من الناس من يكتب ليعجب الناس بما يأتي به من زخرف القول ، ومنهم من يكتب ليرضيهم بما يبديه من حسن الرأي . فهذا يقترص حوادث الزمن ، وذاك يرتقب سوانح الفكت ، ليحل كلامهما محل القبول ، ويصيب مواقع الاستحسان من القلوب ، ونسأل الله أن لا يجعلنا منهم

ومن الناس من يكتب لاجل النفع ، بازالة باطل أو اظهار حق ، أو أمر بمعروف أو نهي عن منكر ، فهو يتخول الناس بالموعظة ، ويتخونهم بالكشف عن مكامن العبرة . ونرجو الله أن نكون من هؤلاء في الدنيا وأن نحشر معهم في الآخرة

تساءل بعض الناس لم كتبت تلك المقالات الطوال في المؤيد حين أوقدت نار

(*) نشرناها أولا في المؤيد

الحرب في طرابلس الغرب وبرقة . ولم أكتب فيه شيئاً في ابان هذه الحرب ، وهي أدهى وأمر ، وأنكى وأضر ، ولو تذكروا تلك المقالات لعلموا أنها كتبت في شأن هذه الحرب وكون تلك مقدمة لها ، أي أنها فتح لباب المسألة الشرقية وتصد من أوربة لحل هذه المسألة ، والقضاء المبرم على ما بقي للمسلمين من هذه الدولة . فلو وعاها اخواننا المسلمون ووزنوها بميزانها لفكروا في مستقبلهم ، واجتمع أهل الرأي منهم في كل مكان للبحث عن مصيرهم ، ولم يرضوا أن تبقى مصلحتهم العامة في أيدي بعض سفهاء الاحلام ، الذين لا يملكون هنا الا البذاء في الكلام ، وتضليل العامة بالوساوس والاوهام ، وكان من ضررهم ما كان . فكيف بحال أمثالهم في عاصمة الدولة وقد ملكوا مع هذا كل شيء فدمروا كل شيء

اني وايم الله لأكتب لأجل الافادة والنفع ، وما اكتفيت في أيام هذه الحرب بما كتبت في المنار ، وأمسكت عن الكتاب في الجرائد اليومية — وأولاها بما أكتب في هذه الحال المؤيد — الا لاني أرى أن هذه مثل البلاد لا تستطيع أن تنفع الدولة الآن الا بالمال . وقد انبرى لجمعه لها أمراؤها خفت لصوتهم كل صوت ، وقصر عن قولهم كل قول ، وتضاءل دون سعيهم كل سعي ، جزاهم الله أفضل الجزاء ، وحسبي من شرف مشاركتهم في ذلك ولو بالاسم انني عضو في جمعية الهلال الاحمر — فلم يبق من طرق نفع الكلام في هذه الحرب الا بيان ما فيها من العبر ، وما أدى اليها من الاسباب ، وما يلزم عن تلك المقدمات من النتائج . وهذا ما كنت أتربص به أن تضع الحرب أوزارها ، لئلا يقال إنها بتسر العبرة فجاءت قبل أوانها . كما قال بعض أصدقائي في مقالة نشرتها في المنار

أما وقد عقدت الهدنة ، وعين المفوضون للبحث في شروط الصلح ، وقد ثبت خيانة وفساد جمعية الاتحاد والترقي للدولة ثبوتاً رسمياً ، وعلم الخاص والعام ، انها هي علة حرب طرابلس وحرب البلقان ، فقد جاء الوقت الذي يرجى أن ينفع فيه القول ، ويخشى أن يضر السكوت . ونرجح المقتضى على المانع

قد كاد يكون من موانع الكتابة قلة وجود المتدبرين الذين يميزون بين قول الحق ويعرفون أهله بأدلتهم وسيرتهم ، وبين أقوال المبطلين الذين يغشون الامة ويغرونها بتأييدهم للاقوياء الذين يتقمصون منهم ، فقد كان زعماء الحزب الوطني هنا يغشون الناس بالسلطان عبد الحميد الذي باعوه ذمتهم بالرتب والنياشين والدراهم والدنانير حتى كان بعض زعمائهم يجعل الشهادتين في الاسلام ثلاثاً . فأوجب على من

يقول أشهد أن لا اله الا الله وأشهد أن محمداً رسول الله . أن يثلث فيقول وأشهد أن السلطان عبد الحميد خليفة الله. ولولا هذا التثليث لما انتقل من لقب أفندي الى لقب بك . ومنه الى لقب باشا . وما زالت جريدة اللواء تغش المسلمين عامة والمصريين خاصة بعبد الحميد مدة حياة مؤسسها وبعد موته الى ما قبل اعلان الدستور بيوم واحد اذ كتب فيها يوم الاربعاء طعن شديد في ملاعب الدستور من المبانيين ودعى لهم بأنهم يريدون به هدم الدولة ، وأنبأتنا البرقيات باعلان الدستور يوم الجمعة

فلما سقط عبد الحميد ونزا على الدولة بعده أولئك الاغبياء المتخرجون في ملاهي غلطه ويوغلي وسلانيك وباريس ، وأفسدوا كثيرا من ضباط الجيش ، وجعلوا بقوتهم الدستور آلة لتفريق عناصر الدولة وذريعة لمحو اسمها من لوح الوجود — قام أنصار عبد الحميد هنا وفي بلاد أخرى ينصرون هؤلاء المتغلبين المخربين ، ويغشون الامة بهم كما كانوا يغشونها به وأشد. وكان يصدقهم في اطرائهم كثير من الناس مع بيان جرائد الامم كلها لمفاسدهم ، بل مع ظهور هذه المفاسد بالفعل — الى أن أبكم الله ألسنتهم قبل ثبوت خيانة مستأجريهم للدولة ثبوتاً رسميا ، وتشكيل الحكومة السلطانية بهم وتمزيقها لشملهم . ولعله لو بقي لهم لسان ينطق ، وقلم يكتب وينشر ، لم يخجلوا من الاستمرار على التمويه والتضليل . اذا كان أملهم بعودة الجمعية الى استبدادها باقيا ، أو امدادها لهم لا يزال متصلا ، ويا حسرتي على شبان هذه البلاد ، الذين خدع كثير منهم بهؤلاء المفتونين بالمال والشهوات ، والشهرة الباطلة ، والاوهام المضللة

نعم ان رواج التغرير والتضليل في سوق السياسة وقلة التمييز بين الحق والمبطل ، والصادق والكاذب ، قد كاد يكون مانعاً من التصدي للكتابة لولا أن الله تعالى أوجب النصح وبيان الحق ، وحرم القنوط واليأس ، وجعل العاقبة للمتقين

﴿ مقدمات الخذلان في هذه الحروب ﴾

جمعية الاتحاد والترقي

اني اعرف من أمر هذه الجمعية ما لا يعرفه أحد في القطر المصري ، وقد بلوتها واختبرتها في الاستانة مدة سنة كاملة ، رأيت من زعمائها وسمعت من ألسنتهم ، ورويت عنهم بالاسانيد العالية المتصلة بهم ، ما لا يتفق مثله الا لقليل من الناس ، ثم أيدت أحاديث جرائد العالم وحوادث الدهر ووقائعها علمته عنهم ، فأنا أروي ما تؤيده الاحاديث

والحوادث، وأستخرج العبرة منه، ليعلم أولو الغيرة على هذه الدولة التي لم يبق للمسلمين غيرها أين مكانها، وما هو الخطر الذي ينذرها، لعل ذلك يكون مما يستبين به أولو الرأي ما يجب لحفظ سلطة الاسلام، المهددة بالزوال والانقراض (والعياذ بالله)

أبدأ بذكر أهم الوسائل التي شرع الاتحاديون فيها ولا أذكر مقصدهم الذي يتوسلون اليه بتلك الوسائل الآن، لانه لا يصدقه غير العارف بحقيقة أمرهم، الا اذا أطلع على المقدمات والوسائل التي أذكرها، لانه مقصد غريب في نفسه

(أعمال الاتحاديين التي كانت مقدمات الخذلان في الحرب)

ازالة قوة المسلمين غير الترك من الدولة

أول ما قرر زعماء هذه الجمعية البدء به من الاعمال، بعد ما غنوا به من جميع الاموال، بضروب من القوة والاحتيال، هو ازالة كل قوة للمسلمين في هذه الدولة حدثني غير واحد في الاستانة من الترك وغير الترك من العثمانيين وبعض الاجانب العارفين بأمور الدولة أن من برنامج جمعية الاتحاد والترقي أن تجمع السلاح من الارنؤوط وتضربهم ضربة شديدة، ثم تجرد جيشا آخر أو جيوشا لضرب العرب في اليمن وعسير، وعشائرهم وعشائر الدروز في حوران وجنوب بلاد الشام ثم العراق، وتجمع السلاح من الجميع، وسأذكر ما قرر في شأن طرابلس بعد، وبعد هذا وذاك تجرد جيشا آخر على الاكراد تذللهم وتجمع السلاح منهم، فاذا هي جمعت السلاح، وأخضعت لمشيتها أولي القوة واليأس من المسلمين، يسهل عليها أن تنفذ مقصدها بلا معارض ولا منازع

قررت جمعية الاتحاد والترقي تنفيذ هذه المادة من برنامجها ولم تفكر في عواقبه. لم تفكر في عجز الدولة عن حماية هذه البلاد اذا كانت مجردة من القوة الذاتية، ولم تفكر فيما تخسره في قتال هذه الممالك من الاموال التي تأخذها من أوربة بالربا الفاحش، ومن الجنود المنظمة التي تحتاج اليها للدفاع عن الدولة وحفظ سلطانها، ولا فيما ينشأ عن هذا القتال من الفتن، وتفرق عناصر الدولة وانحلال روابطها

بدأت الجمعية بقتال الارنؤوط وأنا في الاستانة فبذل مبعوثو هذا الشعب جهدهم في إقناع رجال الجمعية بأن يتوسلوا الى حل مسألة الارنؤوط بالنصح والسلم فلم يقبلوا. وأظهروا الاحتقار لهؤلاء المبعوثين حتى انهم صفعوا اسماعيل كمال بك الزعيم الشهير

في مجلس الامة . ومن غرائب صنعهم أن جمعوا ما قدروا على جمعه من سلاح المسلمين ولم يعيدوه اليهم، ولكنهم أعادوا السلاح الى الماليسوريين لانهم نصارى، فانظر كيف كان عاقبة أمرهم ، وكيف ظهر انه كان يجب عليهم أن يسلموا جميع سلاح تلك البلاد ويدربوهم على الفنون العسكرية لاجل الدفاع عنها ، ويؤلفوا منهم عصابات كعصابات البلغار وغيرهم . ولو فعلوا ذلك لنفع الدولة في هذه الحرب نفعاً عظيما

ثم فعلوا فعلتهم في اليمن وعسير ، وفي الكرك وحوران ، فقد جردوا القتال المسلمين في هذه البلاد زهاء مئة ألف جندي من أحسن جنود الدولة النظامية أو أحسنها على الاطلاق. قتل منهم في اليمن ألوف كثيرة وبقيت مسألة اليمن كما كانت. ولكن خربوا بلاداً كثيرة منها ومن بلاد الكرك وحوران ولم تستفد الدولة في مقابلة هذا التخريب والخسران شيئا . ولو تم لهم ما أرادوا من جمع السلاح من بلاد اليمن لاستولت عليها ايطالية في السنة الماضية وقتلت من فيها من العسكر ، لان الدولة ما كانت تستطيع أن ترسل اليها مددا . ولو نزل أولئك الجنود في معسكرهم لرجحت الدولة على البلقانيين بهم

والآن يتحدث الناس فيما ذكرته الجرائد الفرنسية عن سورية ومصالح دولتها فيها، والظاهر أن المراد به اختبار رأي الدول في أمر استيلائهم عليها . وقد عرف بالقياس على مسألة طرابلس الغرب ومسألة البلقان أن الدولة لا تقدر على حفظ سورية الا اذا كان فيها قوة ذاتية تخشى الدول العظمى بأسها . ولا يمكن ان تأتي هذه القوة من الروملي ولا من الاناضول ، بل يجب أن تكون مؤلفة من الجند النظامي والاحتياطي الذي فيها ، ومن قبائل العرب والعشائر الوطنية والمجاورة، وهؤلاء هم الذين يخشى الاجانب من جانبهم اذا كانوا مدربين على القتال مالا يخشونه من الجند الرسمي ، لان قتالهم يكون بالمطاولة لا بالمناجزة فالخسارة فيه عظيمة، وانما هؤلاء الاجانب تجار يطلبون الربح من أقرب طرقه . وأشدهم اتقاء للقتال أعظمهم توغلا في الاستعمار كانكلترة وفرنسة . ولعل ايطالية لا تعود الى مثل غلطها في طرابلس الغرب . بل أظن أن البلغار قد ندمت على ثورها في طلب أمنيتها على ما أتيح لها من الظفر بخاذلنا واهمالنا، وأنها لا تعود الى مثله

ظهر ضرر هذا العمل السيء الذي شرع فيه الاتحاديون ، وظهر أنه كان الواجب المحتم أن يعملوا ضده ، وأن يجعلوا في كل قطر من هذه الاقطار قوة أهلية تساعدها الدولة وتؤهلها للدفاع عن قطرها ، فهل يعتبر الناس بهذا ويسعون للواجب من جميع الطرق ، هل يعتذر عنه الاتحاديون ويندمون عليه ، هل يسكت عن الاعتذار لهم مأجوروهم والمغرورون بهم ؟

كلا اننا قرأنا في جرائد أمس أن زعماءهم لايخجلون من الاصرار على التهييج بقتال الدولة — أو الحكومة الاتحادية — للارناؤوط وان ظهر ان ذلك كان مصابا كبيراً على جميعهم من جهة وعلى الدولة نفسها من جهة أخرى . وهاك شاهداً مما نقلته احدى جرائد الاستانة عن أحد زعماء الجمعية الذين فروا في هذه الايام الى أوربة :

كتب صاحب جريدة اقدام التركية من سويسرة الى جريدته في الاستانة يقول انه قرأ في جريدة (بسترلويد) حديثا دار بين مكاتب هذه الجريدة (سيوورالي) وبين جاويد بك أحد زعماء جمعية الاتحاد والترقي الذي كان ناظر المالية في أهم وزاراتها

سأل ذلك المكاتب جاويد بك عن أسباب انكسار الجيش العثماني وخذلانه في البلقان فكان الجواب بعد مقدمة فيما ينقص الجيش وفي معداته ماخلاصته :

« اننا كنا هيأنا كل شيء وأنفقنا على ذلك أربعين مليون ليرة في السنوات الاربع الماضية . ولقد ظهر كل هذا في تجهيزنا الحملة على بلاد الارنؤوط وحاربتنا تلك البلاد . أما اسباب فشلنا العظيم فنرجع الى تنظيم رجال جدد لم يطلعوا على الترتيبات »

فليتأمل العقلاء كيف اعترف الزعيم الاتحادي الذي كان ناظرا للمالية بأنهم صرفوا على الجيش أربعين مليون ليرة وكيف يتبجح بأن ثمرة تنظيمهم للجيش وانفاقهم وجد قد ظهرت في قتالهم لطائفة من رعية الدولة الخلاصة لها . أهذه هي غاية استعداد الدولة لحفظ أمن الحرية الدستورية المسلحة ؟ أتعلمون منتهى شوطكم أن تأخذوا أموال الامة وأرواحها وتحملوها الديون التي تذلها للاجانب لاجل أن تقاتلوها به وتقاتلوها وتدمروا بلادها ؟ ألا فليعتبر المعتبرون ، أو ليأتيهم العذاب وهم ينظرون .

— ٢ —

تهييج عصبية العناصر العثمانية

كان الناس يفهمون من اسم جمعية الاتحاد والترقي انها جمعية غرضها أن تجعل بين العناصر العثمانية وحدة سياسية اجتماعية بالمساواة بين الترك وغيرهم في الحقوق الشخصية والحقوق العامة كمناصب الدولة ووظائفها وان هذا هو المراد من كلمة (الاتحاد) الذي يتبعه الترقي في العمران وما يتوسل به اليه من العلوم والفنون . فلما صار التفويض في هذا الجمعية لامتاز الدكتور ناظم وطلعت وجاويد ورحمي وجاهد وأضرابهم ظهر للاحشين والمطلعين من العثمانيين والاجانب ان مرادهم بالاتحاد أن تدغم العرب والارنؤوط والكرد وغيرهم في الترك وتفنى لغاتهم وجنسياتهم فيهم فيكون جميع العثمانيين تركا !

كنا في طليعة من كتب في هذه المسألة ببيان فوائدها وغوائلها ومفاسدها ، ووجوب تقديم درء المفاسد على جلب المصالح ، ومن أوسع ما كتبناه في ذلك بيانا مقالة فلسفية اجتماعية عنوانها (الجنسيات العثمانية . واللغات التركية والعربية) نشرت في منار رجب سنة ١٣٢٧ أي بعد الدستور بسنة واحدة ، بينا فيها بالدلائل والحجج القيمة أن نحو جنس من البشر بادغامه في جنس آخر قد صار في هذا العصر محالا ، وان الدولة العثمانية لا تستطيع أن تجعل غير الترك فيها تركا ، وانها لو كانت تستطيعه لعذرتها عليه سياسة لا دينا ، لاني وأنا مسلم أرى أن الاسلام لا حياة له إلا بحياة اللغة العربية . وانما حياتها بجعلها لغة الخطاب والعلم عند أهلها . ولكن زعماء الجمعية المغرورين الاغرار ، كانوا يرون أنفسهم قادرين على المحال

لا عجب ولا غرابة في الامر . فان أولئك الزعماء اذا لم يسمعوا حديث تلك المقالة ولم يشعروا بها فقد كان لهم على غرارتهم مانع من نشوة السرور بخضوع العثمانيين لهم ، وتقديسهم لجمعيتهم ، واغاضتهم الدنانير والدراهم عليهم ، ومن سكر الاعجاب بثناء الجرائد الاوربية على رجال الانقلاب العثماني — وان كان المستحق لهذا الثناء هو صادق بك والضباط الذين اتبعوه من دونهم — ولكن العجب والغرابة في استمرار أكثر العثمانيين على الاغترار بهم بعد السنة الاولى للانقلاب ، وأعجب وأغرب ما كان من العرب الذين لهم الاتحاديون بشيء اهتمامهم بمحو لغتهم وازالة جنسيتهم ، أو اضعافها وانهاك قواها ، ليستريحوا من إدلالهم بالكثرة والدين الذي يحميهم منه على السلطة التركية ما في كتب العقائد وكتب الحديث من كون الخلافة في قريش ، والأئمة منهم ، وان لم ينازعهم العرب في جعل الخلافة فيهم ،

وكل ما يوجد من هذا القبيل فيها نعلم أن بعض أصحاب الدسائس والمطامع في مصر كانوا يستغلون وسواس السلطان عبد الحميد فيوهمونه ان للعرب جمعية أو جمعيات تسعى للخلافة سعيها ، فكان بعضهم يرسل التقارير السرية الى الملابين في ذلك حتى تجرأ مصطفى كامل على الجهر بالارجاف بهذه الفتنة في لوائه ، في أول العهد بانشائه ، وكبر الوهم فيها وعظمه بزعمه أن بعض الامراء يساعد هؤلاء الساعين على سعيهم . وقد أنكرنا على اللواء الارجاف بهذه الفتنة في المجلد الثاني من المنار فكان انكارنا هذا هو السبب الاول في طعن ذلك الرجل وأخلافه فينا (كما أنكر المؤيد عليه ذلك سراً)

فلما زالت سلطة عبد الحميد ودالت الدولة لفتيان الترك الاحرار الذين كنا نسعى معهم سعياً واحداً الى ازالة الاستبداد السابق ظننا أننا استرحنا من الدسائس ،

التي يروجها المفسدون في سوق الوساوس ، ولكن رأينا زعماء جمعية الاتحاد والترقي لم يدعوا سيئة من سيئات العهد الحميدي الا وأعادوها جذعة ، فهم بعد أن أرسلوا مفتشيهم وجواسيسهم الى جميع البلاد العربية حتى الحجاز فلم يروا من العرب الا الاخلاص الكامل للدولة ، ولم يشموا في بلادهم أدنى رائحة لشيء يسمى الخلافة العربية ، وبعد أن أغروا شريف مكة بابن سعود ، وامام اليمن بالسيد الادريسي ، وليس عند العرب قوة حربية تذكر الا ما عند هؤلاء — وبعد أن رأوا جميع كتاب العرب في مصر وسورية والعراق يثنون عليهم ويداهنون عنهم ، وليس عند العرب قوة أدبية الا ما عند هؤلاء — بعد هذا كله رجحوا سعاية المفسدين على البراهين الحسية ، وأصغوا الى المرجفين بالخلافة العربية ، فتقرب شياطين العهد السابق واخلافهم اليهم ، اذ رأوهم يحسبون كل صيحة عليهم ، وعاد محمد بك فريد والشيخ عبد العزيز شاويش الى مثل إرجاف سلفهما (مصطفى كامل) بهذه المسألة فأعادوها في جريدتهم (العلم) سيرتها الاولى في جريدته (اللواء)

ولما كان الشيخ عبد العزيز شاويش أشد غلواً وتهافتا من مصطفى كامل لم يكتف باتهام جماعة الدعوة والارشاد بهذه التهمة بل طعن في جميع مسلمي العرب فكتب في جريدة العلم ان الدولة العلية لا يخشى عليها من البلغار ولا من الروم ولا من الارمن ولا من نصارى العرب وانما يخشى عليها من مسلمي العرب خاصة . ولاجل هذا الغلو قربته جمعية الاتحاد والترقي منها ، وجعلته من دعاتها وأعوانها ، وأنشأت له مطبعة وجريدة يومية في الاستانة كانت تنفق عليها من مال الحكومة زهاء ٣٥٠ جنيها عثمانياً في كل شهر

ثم جاءت الحوادث تكذب هذا الارجاف فان الحكومة الاتحادية حاربت عرب اليمن ، ونكلت بعرب حوران والكرك ، وعرضت عرب طرابلس الغرب لنيران ايطالية ، ومع هذا كله يزداد العرب الا تعلقا بالدولة وإقداما على بذل أنفسهم وأموالهم في سبيلها . وما رأينا من الامراء الذين أرجف بهم اللواء أولا والعلم ثانيا والهلال العثماني ثالثا الا النجدة العالية للدولة والمساعدة التامة لها ، وهي في أحرج مواقفها . وبعد هذا كله ترى كثيرا من الناس لا يفقهون ولا يعتبرون ، ولا يميزون بين المصلحين والمفسدين

نعم ان العرب قد ظلوا على اخلاصهم للدولة ولكنهم ليسوا حجارة ولا حديدا فتمر عليهم هذه الكوارث ولا تؤثر في نفوسهم . ألا إنها قد أثرت شر تأثير . وهو ان اليأس من الدولة قد دب دبيبه الى قلوبهم وخصوصا بعد حمل الجمعية مولانا

السلطان على حل مجلس المبعوثين الذي ضعفت فيه السلطة الاتحادية . وتأليفهم مجلسا جديداً بقوة الحكومة بعد الضغط على الصحف وحرية الاجتماع وغير ذلك . يئسوا من عد الدولة اياهم عضوا صحيحا منها كاخوانهم الترك أولا، ومن اصلاح الدولة ثانياً ، ومن بقائها ثالثاً ، الا أن تزول منها مفاسد الاتحاديين وتنشأ خلقا جديداً . ومن العجائب أن يئوسهم هذه لم تدفعهم الى القيام بمشروع ما لحفظ وجودهم وحفظ سلطة الاسلام في الارض . بل ظل لسان حالهم يقول : ان بقيت الدولة نعيش معها بعز أوذل كيفما اتفق لنا، وان ماتت نموت معها، ولا خير لنا في الحياة بعدها

وانني اذكر من شواهد اليأس الاول من هذه اليئوس ما سمعته من احد أفراد حزب الاتحاد والترقي من العرب بعد استعراض الجيش الثاني في روابي الاستانة امام ملك البلغار سنة ١٣٢٨ وكنت حضرت هذا الاستعراض في خيمة المبعوثين فلما انتهى وأردنا الذهاب قال لي ذلك المبعوث العربي الاتحادي « متى يكون لنا جيش منظم مثل هذا ؟ ؟ » فكانت هذه الكلمة كجذوة نار وقعت في قلبي اذ علمت منها ان هذا المبعوث الذي كنا نعد وجود مثله في الاتحاديين سببا لحسن الظن فيهم ، قد أداه اختباره الصحيح لهم الى الاعتقاد بان جيش الدولة ليس جيشا لنا . وانما هو في الغالب علينا

هنا يخطر في بال كل قارئ هذا السؤال : اذا كان هذا هو اعتقاد هذا المبعوث في الجمعية فلم بقي فيها ؟ وعندي جواب هذا السؤال قاني كنت ألقيته عليه قبل تلك السنة التي قال فيها كلمته النارية فقال : اسكت انني علمت ان زعماء هذه الجمعية اذا أحسوا بأن أمر الدولة أشرف على التفلت من أيديهم فانهم يعرضونها للزوال دون ذلك . ولهذا أرى أن بقاءنا معهم خير من تركنا إياهم ! !

هذا بعض تأثير تهييج الاتحاديين للعصبية الجنسية ومحاولتهم تحريك العناصر حتى العرب الذين هم أخلص المخلصين للدولة وقد ظهر صدق اخلاصهم لها بالبرهان والعيان. وناهيك بكفاحهم في طرابلس الغرب ، وبلائهم في هذه الحرب ، وهل يخفى على بصير ما لليأس من الغوائل وسوء العواقب . وأما تأثيره في الالبانيين فقد كان ظاهرا وهو الذي أزال سلطة الجمعية من الدولة . وأما تأثيره في نصارى أوربة العثمانيين من البلغاريين واليونانيين والصربيين فهو الذي أوقد نار هذه الحرب وكان أكبر شرها وويلها على الترك والمستركين الذين هضم الاتحاديون حقوق جميع العناصر وقصدوا اذلالها واذلالهم . وما كان أغناهم عن ذلك !

كان المفتونون بخداع الاتحاديين من مسلمي العرب يخطئون أهل البصيرة من اخوانهم اذا طالبوا الدولة بالعناية بتعليم اللغة العربية في مدارسها ، وجعل القضاة والحكام في الولايات العربية من العارفين بلغة أهلها ، وما كان حجتهم إلا أن قالوا انكم اذا طلبتم هذا فتحتم الباب لنصارى مقدونية لطلب مثله لانفسهم ، ظانين ان رضانا بهضم حقوقنا يكون سببا لرضاء أولئك بمثل ما نرضى به وبدونه . جاهلين أنهم لا يرضون بمثل تلك الحقوق التي يحملوننا على السكوت عن طلبها ، وإن كان صلاحنا وصلاح دولتنا لا يكونان الا بها ، وانما وجهتهم انفصال ولا يتهم من الدولة البتة ، واتصال كل شعب منها بالدولة التي هو من جنسها .

بل جهل هؤلاء المفتونون بخداع الاتحاديين انه لولا نصارى الولايات العثمانية الاوربية لما خطر في بال أحد من رجال دولتنا واخواننا الترك فكرة الحكومة النيابية . ولا حاجة الى شرح هذه المسألة الآن وانما موضع العبرة الذي اقتضت الحال بيانه هو ان جمعية الاتحاد والترقي جعلت الدستور خدعة لهؤلاء الناس وللدول التي تنتصر لهم . وأما مسلمو العثمانيين من العرب والارنؤط والاكراد فلا قيمة لهم عندها لانها تعتقد انها تدبر أمرهم بالقوة القاهرة . فكان غرورها هذا مهيجا لهؤلاء النصارى وحاملا اياهم على الحرب الحاضرة بعد ان رأوا الجمعية نفرت جميع العثمانيين من الدولة وأضعفت ثقتهم بها ، وأحدثت مفاسد أخرى أضعفت قوتها المادية والمعنوية . وهو ما بينا بعضه في المقالة الاولى وسنبين بقية المهم منه في المقالات الاخرى

﴿ احوال مسلمي الصين ﴾

مسلمو مدينة نانكين في الصين

نانكين مدينة من كبريات المدن الصينية المشهورة بتجارتها . سكان هذه المدينة زهاء مليون نسمة والمسلمون منهم مقدار مسلمي (بكين) في الكثرة . ومنهم أناس أولو ثروة طائلة وتجارة كبيرة . وهم أرقى مسلمي الصين على الاطلاق في دنياهم ، اذ أكثر الموظفين في دوائر الحكومة منهم ، وكذلك منهم أكثر المعلمين في المدارس ، ويعد المسلمون في هذه الولاية أرقى علماً وفكراً من سائر أهلها ولكن لبعدهم عن العاصمة « مدينة بكين » التي هي مركزهم الاسلامي لا يعرفون من الاسلام غير كلمة التوحيد